

بداية ونهاية

أنور المعداوى

«بداية ونهاية» دليل مادى لا ينكر، على أن الجهد والمثابرة جديران بخلق عمل فنى كامل... لقد أتى علىّ وقت ظننت فيه أن نجيب محفوظ قد بلغ غايته فى «زقاق المدق»، وأنه لن يخطو بعد ذلك خطوة أخرى إلى الأمام. أقول غايته هو لا غاية الفن، لأن «زقاق المدق» كانت تمثل فى رأى الظنون أقصى الخطوات الفنية بالنسبة إلى «إمكانياته» القصصية. ولهذا، خيل إلىّ أن مواهب نجيب قد تبلورت هنا وأخذت طابعها النهائى وتوقفت عند شوطها الأخير... ومما أيد هذا الظن أن المستوى الفنى فى «السراب» وقد جاءت بعد «زقاق المدق»، كان خطوة «واقفة» فى حدود مجاله المألوف ولم تكن الخطوة الزاحفة إلى الأمام!

كان ذلك بالأمس.. أما اليوم، فلا أجد بدا من القول بأن «بداية ونهاية» قد غيرت رأى فى إمكانيات نجيب، وجعلتنى أعتقد أنه قد بلغ الغاية التى كنت أرجوها له، غايته هو وغاية الفن حين كانت الغايتان مطلبًا عسير المنال!

إننى أصف هذا الأثر القصصى الجديد لهذا القصاص الشاب، بأنه عمل فنى كامل. هذا الوصف، أو هذا الحكم، مرده إلى أن أعماله الفنية السابقة كانت تفتقر إلى أشياء، تفتقر إليها على الرغم من المزايا المختلفة التى تحتشد بين يدي صاحبها وتحدد مكانه فى الطليعة من كتاب الرواية!

ماذا كان ينقص نجيب قبل «بداية ونهاية»؟ ماذا كان ينقصه فى «خان الخليلي» و«القاهرة الجديدة» و«زقاق المدق» و«السراب»؟ لقد كان نجيب فى هذه الروايات

الأربع، يملك من الخطوط الفنية ما يتيح له أن يخرج التصميم العام للقصة وهو سليم في جملته.. ومع ذلك فقد كان ينقصه عنصر الالتزام الدقيق لحدود «الواقعية الأولى» في عرض حوادث القصة وتوجيه حركات الشخصيات. وأقول «الواقعية الأولى» لأن الواقعية الثانية كانت هي الساحة الكبرى التي دأب نجيب على أن يعرض فيها أكثر نماذجه البشرية!

إن الفرق بين هذين اللونين من الواقعية هو أن اللون الأول نقل «مباشر» لصور الحياة وطبائع الأحياء، كما هي في الواقع المحس الذي تلمسه العين وتألفه النفس. أعنى أن تكون الحادثة القصصية والنموذج البشري مما يقع كل يوم في محيط اللقطة البصرية والنفسية، أعنى مرة أخرى أن يكون تمثلاً للحوادث والشخصيات تمثلاً شعورياً لا ذهنياً عندما نقارن بين حقيقتها على الورق وبين حقيقتها في الحياة. هذا هو اللون الأول وهذه هي مظاهره. أما اللون الثاني من الواقعية وهو ما نعبر عنه بـ «الواقعية الثانية»، فهو التصوير «التقليدي» لا «الطبيعي» للحوادث اليومية والسمات الإنسانية. أو هو تلك النسخة من الحياة التي يمكن أن نقول عنها إنها «قرية» من الأصل ولا يمكننا القول بأنها «طبق» الأصل، ونسخة كهذه مهما اقتربت من الواقع فهي نسخة «مقلدة» على كل حال... وقد يكون الفن في جوهره تقليداً للحياة، ولكن رسالة الفنان هي أن يشعرنا بأن المشهد الذي يصوره أصيل لا أثر فيه للمحاكاة، وألا يترك لنا فرصة للشك في أن هناك اختلافاً بين الصورة الحقيقية والصورة المنقولة، أو أن هناك حلقة اتصال مفقودة بين الواقع والمثال!

نجيب محفوظ في أعماله الفنية السابقة هو ذلك القصاص الذي يمثل «الواقعية الثانية» في الكثير الغالب من الأحيان، ولست أنكر أن للواقعية الأولى مجالاً في فنه، ولكنه المجال «المحدود» تبعاً لطريقته الفنية التي يسير عليها في كتابة القصة. هذه الطريقة الفنية أساسها أن نجيب مولع بأن يضع كثيراً من نماذجه البشرية تحت مجهر التحليل النفسي، ليتخذ من سلوكها الإنساني مادته الرئيسية في تحليل ما يقع تحت المجهر من «حالات مَرَضِيَّة»! قل إذا شئت إنه يطبق بعض الأصول من علم النفس المرضي على كثير من أبطال قصصه «المنحرفين»، وأنه تبعاً لهذا التطبيق يفرض على فنه أن يسير في خط اتجاه نفسي محدد تدور فيه الشخصية «المریضة» من البداية إلى النهاية، تدور فيه بقوة الدفع «المرضية» التي تبرر سلوكها في محيط «الواقعية

الثانية»... من هنا يخرج نجيب على منطلق «الواقعية الأولى» لأنه يجبر حوادث القصة وحركات الشخص على أن تسير نحو غاية معينة، تحقيقاً لمنهجه الفنى الذى يلمس عند النتائج المادية تفسيراً للظاهرة النفسية أو تشخيصاً للحالة المرضية. وتشعر أن التشخيص النفسى لهؤلاء «المرضى» غير سليم فى بعض الأحيان، ومرجع هذا الشعور إلى أن سلوكهم مفروض عليهم فرضاً ولا يملكون فيه حرية الاختيار!

هنا مفرق الطريق بين واقعتين: «الواقعية الأولى» و«الواقعية الثانية». هذه نسخة من الحياة «قريبة» من الأصل كما قلت وتلك نسخة «طبق» الأصل. وموقف الفن بينهما واضح عندما نضع أنفسنا أمام هذه الحقيقة، وهى أن النموذج البشرى فى حدود الواقعية الأولى موجود فى الحياة بالفعل، وأنه فى حدود الواقعية الثانية موجود فى الحياة «بالإمكان».. أى أننا إذا رجعنا إلى بعض الشخصيات التى رسمها الأستاذ محفوظ فى أعماله الفنية السابقة، وسألنا أنفسنا هل هى موجودة بيننا حقا تروح وتجيء، وتقع عليها العين وتدرکہا الحواس، ونشعر نحوها بشيء من الألفة التى تخلق بيننا وبينها نوعاً من المشاركة الوجدانية؟ إذا سألنا أنفسنا هذا السؤال فإننا ننتهى إلى هذا الجواب: وهو أنها غير موجودة «فعلاً» ولكنها «ممكنة» الوجود، أى أن وجودها غير متعذر لأن منطق الحياة يهضمه إذا «وجد» وكذلك طبيعة الأحياء. من هنا تلمس الفارق الدقيق بين كلمتين: «موجود».. و«ممكن أن يوجد»، وبالطبع لا يضيق الفن بالكلمة الأخيرة وإن كان يفضل الكلمة الأولى بلا مرأء!!

هذا عنصر من العناصر الفنية كان ينقص نجيب محفوظ، وثمة عنصر آخر كان ينقصه، وأعنى به «التذوق الشعورى» الكامل للحياة.. هناك قصاص فهم الحياة حق الفهم وخبرها كل الخبرة، ومع ذلك فهو يتذوقها بقدر معلوم لا يتناسب مع خبرته العميقة وفهمه الأصيل، فما هو الفارق بين طبيعة «الفهم» وطبيعة «التذوق» فى حياة الفنانين؟ لتوضيح هذا الفارق الفنى بين الطبيعتين نقول: إنك تفهم الشيء بعقلك وتتذوقه بشعورك، أعنى أن الفهم أداته الذهن الفاحص وإن التذوق أداته الإحساس الرهيف.. إنهما طاقتان: طاقة عقلية وطاقة شعورية، والذين قويت عندهم الطاقة الأولى وضعفت الثانية، هم الذين تتوقد فى نفوسهم شعلة الفهم وتخبو شعلة التذوق، بالنسبة إلى أى قيمة من قيم الأشياء وأى معنى من معانى الحياة. إن هناك مثلاً من «يفهم» قصيدة من الشعر، يفهم فيها اللفظ والمعنى، ويفهم فيها الوزن والقافية،

ويفهمها شرحا إن طلبت إليه الشرح والتفسير. ومع هذا كله فهو لا يستطيع أن يتذوق فيها الوحدة الفنية ولا الضلال النفسية، ولا التجربة الكبرى وهي مصبوبة في بوتقة الشعور.. وقل مثل ذلك عن الذى يفهم النوتة الموسيقية للحن من الألحان، ثم لا يتذوق جمال اللحن، ولا يهتز فيه لروعة الإيقاع، ولا يستجيب لأنغامه التصويرية!

إن فهم الحياة هو أن نفتح لمشاهدها أبواب العقل، أما تذوق الحياة فهو أن نفتح لتجاربها أبواب القلب.. إننا «نراها» هناك تحت إشعاع الومضة الفكرية و«نتلقاها» هنا تحت تأثير الدفقة الوجدانية! وعلى مدار هذه الكلمات تستطيع أن تنظر إلى نجيب محفوظ فى أعماله الفنية السابقة.. إنك لا تستطيع أن تجرده من التذوق الشعورى للحياة، ولكنه التذوق العابر الذى لا يتناسب مع خبرته العميقة بها وفهمه الأصيل!

ويبقى بعد ذلك عنصر فنى ثالث كان ينقص هذا القصاص الموهوب.. أتدرى ما هو؟ هو تلوين الأسلوب القصصى تلويها خاصا يتلاءم وجو المشهد المصور أو طبيعة النموذج البشرى المرسوم.. فى القصة مثلا موقف إنسانى يتطلب عند تصويره أسلوبا معيناً تتوفر فيه لمعات الشاعرية، وموقف آخر لا نحتاج فيه إلى مثل هذا الأسلوب الشاعرى، عندما نتناول الملامح المادية لمشهد من المشاهد أو لشخصية من الشخصيات، بأسلوب السرد الفنى المؤلف الذى تحتشد له القدرة على التقاط الجزئيات. وهناك موقف ثالث يفرض علينا أن نعالجه بأسلوب آخر هو أسلوب التجريد والتحليل، حين تعترض طريقنا لحظة من اللحظات الزاخرة بألوان من الحركة الذهنية أو النفسية.

نجيب محفوظ فى أعماله الفنية السابقة يكاد يستخدم أسلوبا واحدا فى تصوير شتى المواقف والنزعات، وأعنى به أسلوب السرد الفنى المؤلف. إننا إذا ارتضينا هذا الأسلوب فى تلك المواقف المخصصة لإبراز الملامح المادية للمشاهد والشخص، وتجاوزنا عنه فى تلك المواقف الأخرى المهيأة لتسجيل الحركة الجائشة فى الذهن أو المختلجة فى الوجدان، فإننا لا يمكن أن نسيغه بالنسبة إلى المواقف الإنسانية لأنه يفقدها طابع الجو الشعرى الذى يجب أن تعيش فيه، ومثل هذا الجو إذا فقدته تلك المواقف تعرضت للهمود واعتراها الفتور!

كل من هذه العناصر الفنية الثلاثة التى كانت تنقصه بالأمس: عنصر الالتزام

الدقيق لحدود «الواقعية الأولى» وما يترتب عليه من تشخيص سليم للحالة المرضية، وعنصر «التذوق الشعورى» الكامل للحياة وما يتبعه من إدراك عميق للتجربة النفسية، وعنصر «التلوين الخاص» للأسلوب القصصى وما يعقبه من إثارة الشعور فى الموقف الإنسانى، كل منها قد احتشد له اليوم فى صورته القوية الرائعة فى «بداية ونهاية»، وإذا هذه الرواية الممتازة تعد فى رأى النقد عملا فنيا كاملا لا مثيل له فى تاريخ القصة المصرية.. باستثناء «عودة الروح» لتوفيق الحكيم!

«بداية ونهاية» قصة «مصرية» تمثل حياة أسرة... أسرة تذوقت طعم الفقر وتجرعت ذل الفاقة، بعد أن فرقت بينها وبين عائلها تلك اليد التى تفرق بين الأحياء. والفقر وحده هو المسئول عن البناء الذى تصدع والشمل الذى تبدد، شمل الأسرة الكادحة التى كان للتضحية عند كل فرد من أفرادها طعم ومذاق.. الأم، وحسين، وحسن، وحسين، ونفيسة، كل نموذج من هذه النماذج البشرية التى كونت الهيكل الإنسانى العام للقصة، قد فهم التضحية فهما خاصا وكانت له فيها وجهة نظر خاصة، وجهة نظر حددت الطريق وقررت المصير.. كانوا فلاسفة حياة، فلاسفة أخضعوا الفلسفة لمنطق الشعور المحترق بلهب الحرمان، حتى خرج بعضهم من هذه الفلسفة وهو منحرف العقل مريض النفس، والفقر وحده هو المحور الرئيسى الذى دار حوله السلوك الإنسانى لهؤلاء المرضى المنحرفين!

هذه الأم العظيمة التى صورتها ريشة نجيب فى قدرة فائقة، كان عليها أن تكافح بعد موت الزوج لتخلق من هؤلاء الصغار رجالا يواجهون الحياة.. وهؤلاء الأبناء الأربعة لم يكن لهم مورد فى الحياة غير تلك الجنيهات الخمسة التى كانت تأتيهم من معاش الوالد الراحل، كامل أفندى على الذى أنفق فى الوظيفة زهرة العمر وعصارة الشباب! وماذا تفعل الجنيهات الخمسة لأسرة تواجه مطالب الحياة من مسكن وملبس ومأكل ومحافظة على المظهر القديم أمام الناس؟ هنا يبرز دور الأم، الأم الصابرة العاقلة الحازمة المكافحة فى سبيل البقاء.. باعت أثاث البيت قطعة بعد قطعة لتسكت البطون الصارخة من وطأة الجوع، وهجرت «الشقة» التى كان يدخلها النور والهواء ولجأت إلى أخرى عشش فيها البؤس والظلام توفيراً لقروش معدودات، ورأت أن يقضى حسنين وحسين أيام الدراسة الثانوية بلا مصروف يومية يشعرهما بأن للحياة فرحة يستشعرها الصغار من الأحياء، وفرضت على نفيسة أن تطرق الأبواب لتحصل

لهم على الأجر الضئيل الذى كان يأتيها من حياكة الثياب بين حين وحين. أما حسن الذى دله أبوه حتى طردته المدرسة ونبذته الحياة، فقد أعرض عن نصائحها وهام على وجهه يبحث عن لقمة العيش من كل طريق غير شريف!

ودارت عجلة الزمن والأم الصابرة ما زالت تكافح.. كان الطريق طويلا، رهيبا، قد انتشرت على جانبيه الصخور. ومع ذلك فقد مضت فى طريقها لا تلوى على شىء: يد تجفف العرق المتصبب من حرارة الكفاح، ويد تدفع إلى الأمام بالقافلة المكدودة التى أنهكها طول المسير! لقد كان هناك أمل.. أمل يتراءى على جنبات الأفق البعيد فينسيهم أنهم مشردون وإن ضمهم مسكن، عراة وإن سترهم ثوب، جياع وإن حصلوا على الرغيف.. أمل يتمثل فى الغد القريب الذى سيفتح عينى الأم الصابرة المكافحة على منظر فريد، تسعد فيه برؤية الصغيرين وقد أصبحا رجلين، يشغل كل منهما بعد الفراغ من التعليم مكانه المنتظر فى دنيا الناس!

وجاء الغد المرتقب يحمل إليهم أول بشرى.. لقد ظفر حسين بالبكالوريا والتحق بإحدى الوظائف فى مدينة طنطا. قبل الوظيفة الصغيرة ليستطيع أن يمد يد العون إلى أسرته.. أخوه حسنين، أمه، أخته نفيسة، كان من الظلم ألا يختصر طريقه فى الحياة ليخفف عنهم جزءا من أعباء الحياة. ترى أكان يمكنهم أن يصبروا على شظف العيش حتى ينتهى من دراسته العالية؟ محال! وحين اطمأنت نفسه إلى هذه الحقيقة، أقدم على التضحية وهو سعيد مرتاح البال.

لقد ضحى حسين بآماله العراض... إن المصير الذى ينتظره لن يفترق كثيرا عن مصير أبيه، وهو مصير الألوفا من الموظفين الصغار! مستقبل محدود مظلم ولكنها فلسفة حياة.. وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان! ونفيسة.. لقد ضححت هى الأخرى وكانت التضحية فادحة، لقد ضححت بالشرف الغالى والعرض المصون.. كانت فقيرة ودميمة، وأين هو الزوج المأمول وقد حرمت إلى الأبد عزة المال ونعمة الجمال؟ رجل واحد يستطيع أن يقبلها زوجة وتعيش معه تحت سقف واحد، رجل مضيع فى الحياة مثلها فقير دميم! ولقد وجدت يوما هذا الرجل.. هذا الحيوان الذى استجابت له مرغمة تحت تأثير الحلم الجميل، حلم كل عذراء فقيرة قبيحة الوجه وجدت بعد طول انتظار من يقول لها إنك جميلة، يا زوجة الغد القريب!!

وسقطت نفيسة.. وفر الحيوان الذى سلبها الشرف وتركها وحيدة تواجه الخاتمة فى معركة المصير! وقالت لنفسها يوما: ماذابقى لك يا بئسة؟ لا مال، لا جمال، ولا شرف.. هلبقى شىء تحرصين عليه؟ هل هناك أمل فى زواج جديد؟ وحين فهقه فى أعماقها الجواب.. انطلقت فى طريقها تلبى نداء الجسد عند كل عابر سبيل! انحدار إلى الهوة السحيقة الرهيبة ولكنها فلسفة حياة.. وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان!

وحسن، ذلك الشريد الهائم فى الطرقات... ماذا فعلت به المقادير؟ لقد جاع لأنه لا يصلح لأى عمل شريف، لقد فقد القدرة على أن يحيا حياة نظيفة، مرتبة، هادئة، فيها أمن وفيها استقرار! هناك فى الحياة خط سير يستطيع أمثاله أن يسلكوه.. خط سير يعج بالدروب والمنحنيات التى تختفى فيها الكرامة، والشرف، والفضيلة، والإنسانية.. قيم ستختفى إلى الأبد ومثل ستذهب إلى غير معاد.. ولكن ستظهر بعدها اللقمة الدسمة التى تملأ كل معدة خاوية، وسيقبل فى إثرها الثوب الجديد الذى ينعش كل جسد مهان. وستخطر البسمة المشرقة التى تسعد كل شعور ملتان. وهذا هو خط السير الذى سلكه الفتى الشريد.. يتجر بالمخدرات، ويعيش مع العاهرات، ويالها من حياة.. حياة ينكرها عليه الشرفاء من أسرته، وفى طليعتهم حسنين الذى تخرج فى الكلية الحربية وأصبح ضابطا محترما فى سلاح الفرسان!

من فيض هذه الحياة الآثمة الهابطة استطاع الفتى الشريد أن يخلق من العدم حياة أخوين.. ساعد الأخ الموظف حتى استقر فى وظيفته، ولولا الأساور الذهبية التى سطا عليها من بيت عشيقته وقدمها إليها لما استطاع أن يستقر، ولولا التضحيات الأخرى المماثلة لما استطاع الملازم حسنين أن يسدد أقساط الكلية الحربية، وأن يرتدى الحلة الأنيقة ذات النجمة الصفراء.. ومع ذلك يعيره الضابط «الشريف» بحياته الشائنة، ويحاول جاهدا أن ينتشله من وهدة الإثم والهوان! صورة أخرى رسمها نجيب فى دقة وأصالة، وأبرز من خلال سطورها حقيقة تقول لك: لقد انحرف حسن وحاد عن الطريق، ولكنها فلسفة حياة.. وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان!

أما حسنين، الملازم حسنين كامل على فقد كانت تضحيته من ذلك النوع النادر فى حياة البشر.. كان فتى طموحا منذ نشأته الأولى فى «عطفة نصر الله» بحى شبرا، تلك

العطفة الحقيمة التي لم تكن لتحد من طموحه يوم أن كان تلميذا صغيرا بالمدرسة التوفيقية! كان طموحا رغم فقره، ورغم حاجته، ورغم البيئة التي نشأ فيها ولم تكن توحى لأحد من أبنائها بأمل أو طموح.. إنه يقارن منذ أن صار ضابطا بين يومه وأمسه، فيشعر بهول الفارق بين حاضره وماضيه! هذه العطفة الحقيمة التي شهدت أيام بؤسه وبؤس أمه وإخوته، يجب أن تغادرها الأسرة إلى مكان بعيد، مكان يسدل على الماضي البغيض ستارا من النسيان.. حسبه أن تلك العطفة القذرة قد شهدت أخته نفيسة وهي تسعى إلى كسب عيشهم بعد أن كلت قدماها من السير وتعبت يداها من طرق الأبواب، وحسبه مرة أخرى أن تلك العطفة القذرة قد شهدت أنات بيتهم وهو يباع قطعة بعد قطعة ليعيشوا على الكفاف. وحسبه مرة ثالثة أن تلك العطفة القذرة قد شهدت رجال الشرطة وهم يقتحمون المسكن الذليل بحثا عن أخيه المجرم الطريد.. كل شيء قد فسد يستطيع حسنين أن يصلحه إلا شيئا واحدا يتعذر معه الإصلاح، هو أن يهتدى حسن إلى الطريق القويم! أما نفيسة فلم يكن هو ولا أحد من أسرته يعلم أنها قد اندفعت إلى ذلك الطريق... وخيل إليه وهو ينتقل بالأسرة الحبيبة إلى مصر الجديدة، خيل إليه أنه قد رد إلى نفيسة كرامتها حين حال بينها وبين الهوان!!

وهناك، في ذلك المكان الجديد الآمن تنفس حسنين الصعداء.. لقد بدأت الحياة تبسم بعد طول التجهم والعبوس، حين انقطعت أخبار حسن الذي كان يهدد طموحه وسمعته ونظرته إلى المستقبل كلما فكر فيه! وبهية.. تلك الفتاة التي أحبها في عطفة نصر الله وخطبها إلى أبويها وهو تلميذ صغير، تلك الفتاة «البلدى» الفقيرة الساذجة لم تعد تصلح لأن تكون زوجة لضابط عظيم.. إن زوجة المستقبل وشريكة الحياة هناك، في ذلك القصر الأنيق الذي ذهب إليه «خاطبا» منذ أيام! إنه يريد أن يقطع كل علاقة كانت تربطه بعطفة نصر الله. ولو كان له في تلك العطفة حب قديم، حب قضى بين أحضانها أجمل أيام العمر وأسعد لحظات الشباب!

لقد اختفى حسن، واستقرت نفيسة، وذهبت بهية، وبقي أن يفتح القلب على مصراعيه ليستروح أنسام السعادة التي كان يحلم بها منذ بعيد.. ولكن القدر لا يريد للأسرة البائسة المسكينة أن تستريح، ولا يريد للفتى الطموح الأمل أن يسعد بأحلامه وأمانيه! لقد هوى بضرباته السريعة المتلاحقة على أحلام العمر فبعثرها مع الريح في كل طريق.. لقد حيل بينه وبين حبه الجديد، حين رفضت الأسرة العريقة المترفعة أن

تصاهر ضابطا يتهامس الناس حول أخته ويتحدثون عن أخيه... وحين أفاق الملازم حسنين من الصدمة الأولى زلزلت كيانه الصدمة الثانية حين جىء إلى بيته بأخيه حسن محمولا تنزف فيه الدماء، وعليه أن ينتظر اللحظة الرهيبة المقبلة فى أعقاب الشقيق المجرم طريد القانون! وحلت اللحظة الرهيبة الحاسمة حين أقبل أحد رجال الشرطة ليستدعيه إلى قسم البوليس.. حسن! بالطبع ليس هناك غير حسن، تلك السحابة السوداء فى أفق ينذر بالغيوم.. وحوله، وحوله وحده ينتظره هناك سؤال وجواب.

وفى قسم البوليس وجد أخته الساقطة بدلا من أن يجد استجوابا عن أخيه الطريد لقد ضببت نفيسة فى بيت يدار للفساد!! وأظلمت الدنيا فى عينيه وضاق الفضاء.. لقد فقد كل شىء، فقد حبه، وفقد أمله، وفقد سمعته، وفقد فى الحياة القصيرة التى ملأها بالأحلام كل حلم جميل وأخذ أخته وخرج.. إلى أين؟ لا يدري فكرة ولا تدرى قدماه.. إن فى أمواج النيل الحانية مثنوى لكل بائس شريد منبوذ من الحياة. هكذا قالت له نفيسة حين سألتها أن تحدد لنفسها الطريق وتخير المصير! ومضت أمامه ومضى خلفها إلى هناك.. إلى حيث يتاح للبائسين أن يعرفوا طعم الراحة بعد طول العناء!

وقال الملازم حسنين لنفسه: لقد حكمت عليها بالإعدام فقبلت الحكم وهى راضية صابرة مستسلمة للقضاء.. وما كان أشجعها وهى تستقبل الموت وكأنها تستقبل الزوج الحبيب الذى قضت العمر تفتش عنه فى دروب الأمل! امرأة ضحت بأيام الحياة فرارا من قسوة الحب، وأنت؟ أنت يا رجل.. ماذا تنتظر؟!

صورة ثالثة أوفى نجيب على الغاية وهو يحدد خطوطها النفسية، خطوطها التى تطل عليك من آفاق الشعور لتقول لك: ترى هل كان حسنين شجاعا حين لحق بنفيسة؟ أم كان جبانا حين فر من لقاء الناس؟ مهما يكن من شىء فقد كانت فلسفة حياة.. وفلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية فى كثير من الأحيان!

عن كتاب «نماذج فنية من الأدب والنقد»

القاهرة ١٩٥١.